السيرة النبوية

تربية أمة وبناء دولة

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٢٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

السيرة النبوية

تربية أمة وبناء دولة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَبَعْـد:

كثيرة هي كتب السيرة...

وهذا دليل على وعي مفكري هذه الأمة لمكانة السيرة وأثرها في إحياء الإسلام في النفوس المؤمنة.

وإني إذ أسهم بهذا البحث في هذا الميدان، فإنه لن يكون بحثاً في السيرة التقليدية التي تعتمد الحديث عن الغزوات أساساً لها، كما أنه لن يكون بحثاً في الشمائل التي تعتمد صفاته ﷺ وأخلاقه أساساً للبحث.

وإنما أحاول رصد حركة الدعوة في السيرة. هذه الحركة التي رُبيت بها أمة وقامت عليها دولة.

وهي محاولة جديدة ـ كما أحسب ـ في بابها، بذلت جهدي في سبيل استكمال خطوطها العريضة.. ومع ذلك فإني أشعر بتقصيري، ولعل مما

يشفع لي أنها خطوة على الطريق، لعل الله يهيء لها من يتابعها، أو يتيح لي في الأجل، فأتدارك ما فات.

واللهَ أسأل ، أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكـريم ، إنه نعم المسؤول، وآخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ربيع الأول ١٤١١ هـ
أيلول ١٩٩٠ م

صالح أحمد الشامي

منهج البحث

قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويتحدث عن حركة الدعوة في مكة. وفيه ثلاثة أبواب:

الأول: ويتناول الحديث عن مراحل سير الدعوة.

الثاني: ويتحدث عن التربية في المرحلة المكية.

الثالث: ويتحدث عن مسارات التربية وسماتها.

القسم الثاني: ويتحدث عن الهجرة. وفيه فصلان.

الأول: ويبحث أمر الهجرة إلى الحبشة.

الثاني: ويبحث أمر الهجرة إلى المدينة.

القسم الثالث: ويتحدث عن حركة الدعوة في المدينة. وقد قسمتها إلى ثلاث مراحل. وفيه ثلاثة أبواب:

الأول: ويبحث المرحلة الأولى: من الهجرة إلى بـدر.

الثاني: ويبحث المرحلة الثانية: من بدر إلى صلح الحديبية.

الثالث: ويبحث المرحلة الثالثة: من الصلح إلى نهاية العهد النبوي وفي كل من هذه الأبواب الفصول التالية:

- بحث الحياة السياسية والعسكرية.
- بحث الوضع السكاني.
- بحث حركة الدعوة.
- بحث الوضع الاقتصادي.
- بحث التربية.

بين يدي الكتاب

١

إن مهمة «الرسول» هي إيصال «الرسالة».

وبما أن «رسالة الإسلام» هي «منهج الحياة» الـذي أراد الله تعالى لعباده أن يسيروا على هديه، كان من رحمته تعالى بعباده أن جعل من مهمة «حامل الرسالة» أن يؤديها بيانـاً عملياً في واقع الحياة، بكل مـا في هذا الواقع من ملابسات ومفاجآت، حتى تكون «حياته» مناراً لعباد الله في كل الظروف وعلى اختلاف الأيام.

وفي القرآن آيات كثيرة تبين هذا المعنى وتؤكده ومن ذلك:

قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وقوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الأولى: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابـرته

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل..».

ونحن كثيراً ما نستشهد بالآية الكريمة على ضرورة اتباعه ﷺ في كل أمر من أموره، وفي كل عمل من أعماله وفي كل شأن من شؤونه.. بحيث تكون سيرته نصب عيني كل مسلم فيتأسى به ويسير على هديه.

وإذا علمنا أن هذه الآية نزلت في مناسبة غزوة الأحزاب.. علمنا أن هذا التأسي ليس قاصراً على قضايا السلم، بل هو ألزم في أوقات الأزمات، حيث يكون التأسي به ﷺ ثباتاً في الجأش وقوة في الأعصاب وصبراً جميلاً في مواجهة المصاعب. وهذا هو الميدان الأول الذي نزلت الآية الكريمة في مواجهته.

قال سيد قطب رحمه الله: «وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم[1]، لمما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر..».

وتؤكد آية «آل عمران» معنى ما جاءت به آية الأحزاب، وتضيف إليه: أن اتباعه ﷺ والتأسي به، هو التعبير الصادق عن الحب لله تعالى، وهو بالتالي الوسيلة لحصول العبد على محبة الله تعالى له، وتلك هي الغاية التي يسعى إليها كل مسلم ومؤمن.

ونلفت النظر إلى أن الاتباع والتأسي أوسع دائرة من إطاعة الأمر واجتناب النهي، فالتأسي تتبع للأقوال والأفعال، في كل صغيرة وكبيرة، في العادات وفي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات.. في ذات العمل وفي طريقة أدائه، في القول وبالطريقة التي أدي بها هذا القول.. إنه التأسي بالمضمون والشكل.

---

(١) المقصود به غزوة الأحزاب.

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى في حياته ﷺ فنقلوا لنا كل ما شاهدوه أو سمعوه منه ﷺ، ونقلوا الطريقة والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والكلام والمشي.. وكل شيء، حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته.

نقل الصحابة لنا ذلك، وطبقوه تأسياً واقتداء.

فهذا ابن عمر رضي الله عنهما كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[1].

وهذا ابن عمر يقول: (لبس عمر قميصاً جديداً، ثم دعاني بشفرة فقال: مدَّ يا بني كم قميصي، وألزق يديك بأطراف أصابعي ثم اقطع ما فضل عنها، فقطعت من الكمين من جانبيه جميعاً، فصار فم الكم بعضه فوق بعض، فقلت له: يا أبته لو سويته بالمقص، فقال: دعه يا بني، هكذا رأيت رسول الله يفعل، فما زال عليه حتى تقطع، وكان ربما رأيت الخيوط تساقط على قدمه)[2].

إنه الاتباع والتأسي حتى في الأعمال العادية التي هي من باب المباحات.

* * *

على أن إمعان النظر في الآيتين الكريمتين يؤكد أن هذا التأسي والاتباع لا يصح أن يكون قاصراً على العمل الفردي الذي يقوم به الإنسان لذاته، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك ليشمل الاتباع في الأعمال الجماعية، والتي كان ﷺ يقوم بها مع أصحابه.

كما أنه لا ينبغي أن نقف عند النظرة الجزئية التي تتناول سلوكه ﷺ

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٣٥٦ وقال: أخرجه البزار بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي: ورجاله موثقون.

(٢) المصدر السابق ٢/٣٥٤ نقلاً عن أبي نعيم في الحلية ١/٤٥.

من خلال الأعمال كلاً منها على حدة، بل علينا أن ننتقل إلى النظرة الكلية فندرس ترتيب هذه الأعمال والأقـوال.. فكل منهـا كان يـأتي في الوقت المناسب..

وبهـذا الأسلوب من الدراسـة والتتبع نستـطيع الاهتـداء إلى منهـج الحركة..

إن الطريقة التي التزمها ﷺ في دعوته للناس، هي الوحيدة القادرة على الخروج بالناس مرة أخرى من ظلمات الجاهلية كلما عمَّت إلى نور الإسلام.

وحينمـا ننعم النظر في السيـرة العطرة نجـد أن الـدعـوة في مكـة استغرقت ثلاثة عشر عاماً. وأن القسم الأكبر من القرآن نزل في مكة. ولم تقم بعدُ دولة، ولم تنزل آيات التشريع.. إنه أمر يستوقف الدعاة لدراسته إذا أرادوا استئناف حياة إسلامية.

إن تربية الأفراد طويلاً سبقت إقامة المجتمع الإسلامي، وإن التدريب على الصبر تربية للنفوس، سبق مطالبتها بالصبر في ميادين القتال.

إن تتبع حركة هذا الدين على يديه ﷺ ومعرفة ترتيبها الأول فالأول في محاولة للتأسي بها في تربية جيل يحمل الإسلام مرة أخرى، واجب على علماء هذه الأمة، ولعله من أول الواجبات.

إن سيرته ﷺ في مكة أو المدينة كانت تسيـر وفق مخطط إلهي.. وكانت كل خطوة منها جـزئية من منهـج الحركـة في هذا الـدين.. ومن الواجب التعرف على سير الحركة في هذا المخطط لنسلك السبيل السوي في الدعوة إلى الله تعالى.

إننا بحاجة إلى دراسة متأنية للسيرة لا باعتبارها أحداثاً وأقوالاً فحسب وإنما باعتبار هذه الأحداث والأقوال وردت في ترتيب زمني، ووفق أوليات روعي فيها الوضع النفسي وغيره للجماعة المسلمة.

إنه الجانب الآخر من التربية النبوية في إطارها الكلي، لا بد من البحث والدراسة لوضعه في متناول الأيدي المخلصة في دعوتها إلى الله عز وجل.

٢

(إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

تلك كلمة قالها إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، رحمه الله، وهي تمثل النظرة الثاقبة التي ترشد إلى طريق الإصلاح. وما هي إلا المفهوم الواعي لما ورد من قوله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم».

والكتاب والسنة كانا مادة صلاح الأول..

على أن هذا الصلاح لم يكن دفعة واحدة، أو قفزة واحدة.. وإنما كان تربية خطت خطواتها على مراحل، بل إن القضية الواحدة ربما تناولها القرآن أو السنة على مراحل، وما قضية تحريم الخمر بخافية على القارىء الكريم.

وإذن، فهناك المادة التي يكون بها الصلاح، وهناك الطريقة لاستعمال هذه المادة، إنه لا يكفي أن نعرف الدواء بل لا بد من معرفة كيفية الاستعمال.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نؤكد على ضرورة التعرف على منهج الحركة في سيرته ﷺ حتى يتسنى لنا الاتباع بعد المعرفة، فنكون على هدي من السنة الشريفة في الموضوع وفي الشكل. وبهذا يصلح الآخر بما صلح به الأول.

القسم الأوّل

حَرَكةُ الدَّعوَةِ في مَكّة

تركز الجهد في حركة الدعوة في مكة ـ والتي استمرت ثلاثة عشر عاماً ـ على إنشاء القاعدة الصلبة، التي أعدت لتساهم في تحمل مسؤولية العمل فيما بعد.

وكان الجهد مركزاً على تربية الأفراد تربية إيمانيـة تجعلهم قادرين على القيام بما يسند إليهم من مهـام. يحركهم الإيمان الذي استقر في قلوبهم، غايتهم رضوان الله تعالى.

وسوف يكون حديثنا عن ذلك من خلال ثلاثة أبواب:

الباب الأول

مراحل سير الدعوة في مكة

نحاول في هذا الباب بيان سير الدعوة بشكل عام إبان المرحلة المكية، والذي يبدو لي أنه يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

الأولى: وتنتهي بإسلام عمر رضي الله عنه.

والثانية: وتبدأ بعد ذلك وتستمر حتى بدء الهجرة إلى المدينة.

وقد دفعني إلى اعتبار إسلام عمر رضي الله عنه الحد الفاصل بين هاتين المرحلتين:

١ ـ لأن المسلمين قد عزّوا في أنفسهم بعده. فقد قال ابن مسعود: كان إسلام عمر عزاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر.

وقال صهيب: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا.

٢ ـ وبإسلام عمر رضي الله عنه انتهى دور دار الأرقم التي كانت المركز السري إذ لا نجد لها ذكراً بعد ذلك.

ومن هذا المنطلق فإننا سنتحدث عن موضوع هذا الباب في فصلين:

الأول: ونتحدث فيه عن فترة الاستخفاء.

الثاني: ونتحدث فيه عن الجهر بالدعوة.

الفصل الأول

الاستخفاء بالدعوة

الدعوة سراً:

يذهب كثير من كتاب السيرة إلى اعتبار السنوات الثلاث الأولى التي أعقبت نزول الوحي عليه ﷺ فترة سرية بدأت الدعوة حياتها بها، وعلى هذا فقد بدأ ﷺ دعوته سراً.

ولا نجد تفصيلاً لما حدث في هذه السنوات الثلاث في المصادر، فهي لم تتوقف طويلاً عند ذكر هذه المدة، بل لم تفرد لها عنواناً مستقلاً، أو فصلاً خاصاً، وإنما ورد الحديث عنها مجملاً ضمن الحديث عن الدعوة.

فابن هشام ـ على سبيل المثال ـ يقول نقلاً عن ابن إسحاق: ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه..[1].

وأغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالاً تاماً[2].

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١/٢٦٢.

(٢) ومن هذه المصادر: مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (النسخة المستخرجة) جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، من منشورات مكتب التربية العربي.
وقريباً من ذلك فعل ابن حزم في كتابه «جوامع السير» فإنه بعد ذكر المسلمين الأوائل، وقد عدَّ منهم ما يزيد على الأربعين قال: «ثم أعلن رسول الله بالدعاء إلى الله عز وجل، وجاهرته قريش بالعداوة والأذى...» ص ٥١. =

لم يستخف ﷺ بدعوته:

والذي يبدو لي من الرجوع إلى النصوص ومقارنتها، أن النبي ﷺ لم يتأخر عن إعلان دعوته إلى الناس حسب ما أمره الله تعالى به يوماً واحداً، وليس في القرآن الكريم ما يشير إلى ما اصطلح عليه باسم «الدعوة السرية»، بل إننا نرى الآيات الكريمة الآمرة بالدعوة صريحة واضحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[1] ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[2] ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[3]، ومن اليقين الذي لا شك فيه، أنه ﷺ قام بتنفيذ هذه الأوامر فور صدورها[4].

ولهذا المعنى - والله أعلم - لم يتوقف الإمام ابن القيم عند ما نسميه «الدعوة السرية» عندما تحدث عن مراحل جهاده ﷺ، بل قال: «وشرع [ﷺ] في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً،

= فكلمة «أعلن» هي الكلمة الوحيدة التي تشير إلى أنه قبل ذلك لم يكن في حالة من الإعلان، وهذا لا يعني أنه كان في حالة من السر، فقد لا يعلن الإنسان عن أمر ومع ذلك لا يتوخى السرية فيه.

(١) سورة المدثر: الآيتان ١ - ٢. (٢) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٤) مما ورد - على سبيل المثال - بشأن آية الشعراء، ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبدالمطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»، قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.
وهكذا كانت مبادرته ﷺ سريعة لتنفيذ الأمر وكذلك شأنه في كل أوامر الله تعالى.

وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس..»[1].

ونستطيع أن نؤكد ما ذهبنا إليه بما رواه ابن هشام عن إسلام أبي بكر إذ قال: «فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله»[2]. ومن المعروف أن أبا بكر رضي الله عنه من أوائل من أسلم إن لم يكن أول المسلمين، فكيف يُظهر إسلامه في الفترة التي افترض أن تكون سرية؟!.

إننا على يقين من أن الرسول ﷺ لم يستخفِ بدعوته في يوم من الأيام، منذ كلف بها[3]. وإن كانت في البدء موجهة إلى من يتوسم بهم الاستجابة وعدم الإنكار.

وهذا يفسر لنا عدم تظاهر قريش بالعداوة من اليوم الأول، وإنما استمعت وسكتت، ولعلها ظنت النبي ﷺ واحداً من المتألهين الذين عرفوا قبله ﷺ باسم الحنفاء. أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، والذين لم يقف أحد في وجههم، بل تركوا وشأنهم.

قال ابن إسحاق: «فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به

(١) زاد المعاد، لابن القيم ١٢/٣ بتحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط.
(٢) سيرة ابن هشام ٢٤٩/١.
(٣) ذهب إلى هذا الرأي الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه «سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم» فقال: «إن الدعوة بدأت علنية وبقوة، خلافاً لما روي أنها بدأت سرية.. وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد في الروايات التي تروي أقوال بعض أصحاب رسول الله، مثل ما روي في قصة إسلام عمر حيث سأل: (أنحن على حق أم باطل، فقال له رسول الله ﷺ: «بل على حق»، فقال: ففيم التخفي إذن).. أن النبي ﷺ حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة، وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته» ١٥٤/١ ـ ١٥٥.

كما أمره الله، لم يبتعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته»[1].

وإذن فقد بدأ ﷺ دعوته قوية صريحة، وقد أسلم عدد لا بأس به يقرب أو يزيد على عشرين صحابياً وصحابية ـ وهم الذين جاء في تراجمهم أن إسلامهم كان قبل دخول دار الأرقم[2] ـ ثم وقفت قريش في وجه الدعوة فاتخذ ﷺ دار الأرقم لا ليستخفي هو فيها، فقد كانت قريش كلها تعلم بدعوته، وإنما ليتيح لأتباعه الجدد الاستخفاء لدفع العدوان عن أنفسهم وقتاً ما[3]، ولأغراض أخرى سنتحدث عنها قريباً إن شاء الله.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٦٤.

(٢) ممن ذكر في إسلامهم أنه كان قبل دخول دار الأرقم:
خديجة أم المؤمنين، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر، وعثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد وزوجه فاطمة، وابن مسعود، وعياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن جحش، ومعمر بن الحارث، وحاطب بن عمرو، وواقد بن عبدالله بن مناف، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبدالله وقدامة، وعامر بن ربيعة، وخنيس بن حذافة.

(٣) هذا ما نراه الصواب في هذه القضية، ولا يعكر علينا النص الذي جاء في البداية نقلاً عن ابن إسحاق ٣/٢٤، والذي ينص على توقف علي حين دعي إلى الإسلام فقال له النبي ﷺ: «يا علي، إذا لم تسلم فاكتم..» وكره ﷺ أن يفشي سره قبل أن يستعلن أمره..
والجواب على هذا: أن هذا الخبر لم يورده ابن هشام، وربما كان ذلك لمطعن فيه، ثم إن هذا الخبر ورد في آخره ما يناقض الواقع. ففي تتمة الخبر: ففعل علي وأسلم ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم علي إسلامه ولم يظهره. اهـ. ونتساءل لماذا الخوف من أبي طالب، وعليّ في هذه الفترة إنما كان يعيش مع الرسول ﷺ. كما نص عليه ابن هشام ١/٢٤٦.
وقد أورد ابن كثير بعد هذا الخبر مباشرة خبراً آخر من رواية ابن إسحاق بسنده يؤكد أن علياً كان في هذه الفترة في حجر النبي ﷺ.. وفي الخبر أيضاً أن أخ الأشعث بن قيس لأمه واسمه عفيف، كان تاجراً له علاقة بالعباس، فالتقيا أيام الحج قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي وخرج غلام يصلي معه فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال: =

دار الأرقم:

اتخـذ الـرسـول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم[1] - أحد المسلمين الأوائل - مركزاً لدعوته. ولا نعلم متى كان ذلك، وكل ما بين أيدينا يدل أن اتخاذها كان بعد إسلام عدد لا بأس به.

ويغلب على الظن أن اتخاذ هـذه الدار إنمـا كان بعـد أن أظهرت قريش عداوتها وصبت غضبها على بعض من أسلم.

وقد استمرت هذه الدار في أداء دورها الفعال حتى إسلام عمر بن الخطاب فيها، في ذي الحجة سنة ست من المبعث[2]. وكان ذلك آخر العهد بها، إذ لم نسمع بعد ذلك ذكراً لها في حوادث السيرة. «فقد عزَّ أصحاب رسول الله ﷺ في أنفسهم حين أسلم عمر بعد إسلام حمزة» كما قال ابن هشام[3].

وقد شهدت هذه الدار إسلام ما يقرب من أربعين صحابيـاً، منهم عمار وصهيب، فقد أخرج ابن سعد عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار قال: قال عمار بن ياسر رضي الله عنه (لقيت صهيب بن سنان على بـاب دار الأرقم، ورسول الله فيها، فقلت له ما تريد؟ قال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا

= هذا محمد يزعم أن الله أرسله.. فقال عفيف: ليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثانياً.

وروى هذا الخبر ابن جرير. وفيه دلالة على نفي ما جاء من طلب السرية - كما في الخبر الأول - فالذي يطلب السرية لا يخرج ليصلي أمام الناس.

(1) كانت هذه الدار على الصفا، وقد أسلم فيها ما يقرب من أربعين صحابياً، وكان آخرهم عمر، وعلى هذا فقد كان إسلام عمر رضي الله عنه بعد ما يزيد على ستين صحابيـاً.

(2) كما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب، وحكى ابن الجوزي الاتفاق عليه [شـرح الزرقاني على المواهب ١/٢٧٢].

(3) سيرة ابن هشام ١/٣٤٦.

عليه فعرض علينا الإسلام، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون..)[1].

كما شهدت إسلام إياس وعامر ابني البكير وغيرهم..

ولم تكن دار الأرقم وحدها هي مكان اللقاء، وإن كانت - فيما يبدو - مكان توزيع المهمات، وبيان ضم بعض الصحابة إلى بعض[2] وغير ذلك، وكان هناك أماكن أخرى.

ففي أول مقام خطب به أبو بكر، في بدء الدعوة، ضرب ضرباً شديداً.. ثم حمل إلى بيته، وهم لا يشكون في موته، فلما أفاق سأل أمه عن رسول الله ﷺ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب.. وجاءت أم جميل.. فسألها أبو بكر عن مكان رسول الله ﷺ.. فقالت: إنه في دار الأرقم[3].

وسؤال أبي بكر عن مكان وجود رسول الله ﷺ - وهو الرجل الذي قلما يفارقه - يعني أن هناك أكثر من مركز يلتقي به المؤمنون سراً، ويكون تحديد اللقاء في أحدها آنياً، وإلا فكيف تعرف أم جميل المكان ويجهله أبو بكر وهو لم يغب في هذه الحادثة عن رسول الله ﷺ إلا يوماً واحداً.

إن هذا ليدلنا على تعدد أماكن اللقاء بالنبي الكريم، وإلا فدار واحدة مثل دار الأرقم ستكون مكشوفة لقريش لو كان تردد المسلمين إليها يومياً كما هو الواقع الذي كان، من اجتماع الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

لم يكن الاستخفاء عاماً:

قلنا إن النبي ﷺ لم يستخف بدعوته، وإنما أذن بذلك لبعض المسلمين مراعاة للأوضاع القاسية التي كان يتلقاها الذين يعلنون إسلامهم.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٤٧.

(٢) كما حدث في ضم خباب بن الأرت إلى سعيد بن زيد.

(٣) انظر في تفصيل هذه الحادثة كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ص ٦٢ - ٦٤.

وقد رأينا كيف أن أبا بكر أعلن إسلامه من يومه الأول، وأغلب الظن أن أكثر الذين أسلموا قبل دخول دار الأرقم كانوا قد استعلنوا بإسلامهم.

ومما يؤكد لنا إعلان عدد من المسلمين إسلامهم خلال هذه المرحلة المبكرة انتشار ذكر الإسلام حتى تجاوز مكة إلى أماكن أخرى ليست قريبة منها، ونكتفي بذكر الخبرين التاليين دلالة على ذلك.

١ - روى كل من البخاري ومسلم قصة إسلام أبي ذر في هذه المرحلة المبكرة، وفيها أنه أرسل أخاه يعلم له الخبر فلم يشفه.. فذهب إلى مكة يلتمس النبي ﷺ.. وكره أن يسأل عنه أحداً.. وبعد ثلاثة أيام قال له علي: (ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، فقال:.. فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه. وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، فقال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه..)(١).

ونتساءل لو كانت هذه المرحلة سرية مطلقة، فكيف وصل الخبر بظهور النبي ﷺ إلى سمع أبي ذر وهو في مضارب قومه؟.

٢ - وروى مسلم عن أبي أمامة قال: (قال عمرو بن عَبَسَةَ السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً(٢)، جُرءاء(٣) عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة..)(٤).

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٤٧٤ والبخاري برقم ١٦٥٨.

(٢) بيّنا فيما سبق المقصود من استخفائه صلى الله عليه وسلم.

(٣) جمع جريء.

(٤) رواه مسلم برقم ٨٣٢.

ونتساءل مرة أخرى: كيف وصل الخبر إليه وهو بعيد عن مكة؟ لا شك بأن الاستخفاء كان لمن يرغب به.. ولو لم يكن كذلك لمنع النبي ﷺ أبا ذر ـ كما مر في الحديث السابق ـ من إعلان إسلامه.

الحكمة من فترة الاستخفاء:

تبين لنا مما سبق أن هذه الفترة استمرت حتى نهاية العام السادس من البعثة، يوم أسلم عمر، وظهر المسلمون، وانتهى دور دار الأرقم فيما يبدو.

وفي هذه الفترة كان الناس بين معلن ومستخف، فهذا عمر بن الخطاب قبل إسلامه يلتقي بأم عبدالله بنت أبي حثمة، زوج عامر بن ربيعة وهي تعد نفسها للرحيل مع زوجها إلى الحبشة، فيقول لها: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: فقلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا.. إنها وزوجها بكل هذا الوضوح تعلن عن الخروج.. وعمر نفسه يوم أسلم بعد ذلك لم يكن يدري أن أخته وزوجها قد أسلما.. إنها قضية كانت متروكة للأفراد الذي يسلمون، فيكون إعلان إسلامهم حسب رغبتهم.

وإن الباحث في هذه الفترة من حياة الدعوة يجد أن هذا الاستخفاء كان ينطوي على أكثر من فائدة ومصلحة للمسلمين ومن ذلك:

١ ـ **إيصال المعلومات**: إن آيات القرآن الكريم كانت تنزل يتبع بعضها بعضاً وفيها التوجيهات الإلهية الكريمة، وكان لا بد لكل فرد مسلم من معرفة ذلك، فهذه الآيات هي التي تقود الجماعة في طريق الحق.. وقد وقفت قريش عقبة في سبيل هذا التبليغ، وقد حكى القرآن هذا الموقف، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] وإذا كان هذا موقفهم فكيف يسمحون للرسول الكريم بالاجتماع بأصحابه ليبلغهم الوحي..؟.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

وفي سبيل هذا التبليغ كان المسلمون منقسمين إلى جماعات صغيرة يلتقـون في البيوت على قراءة كلام الله تعالى وحفـظه، ومن لا يستـطيـع الوصول إلى دار الأرقم كانت تصله الآيات مكتوبة، ويصل إليه من يتلوها عليه ويعلمه إياها.. وقد رأينا النموذج الواضح لهذه الجماعات في اجتماع سعيد بن زيد وزوجته فاطمة وخباب بن الأرت ورجل آخر لم يسمَّ حينما طرق الباب عليهم عمر وهم يقرؤون القرآن ويتدارسونه.

٢ ـ **تخفيف آلام الصحابة**: كانت عمليات القهر والإيذاء قائمة لمن عـرف إسلامـه وكان هؤلاء يـأتـون إلى دار الأرقم، أو إلى حيث يكـون رسول الله ﷺ فيخفف آلامهم ويمسح جراحهم ويثبتهم.. وقد جاء أبو بكر يوماً بعد أن ضرب ضرباً شديداً في المسجد، جاء إلى دار الأرقم.. فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله.. ورق له رقة شديدة[1].

٣ ـ **الابتعاد عن الفتنة**: من واقعية هذا الدين أنه لا يطلب من الناس ما لا يطيقون، وبما أن الناس ليسوا جميعاً في مستوى واحد في قدرتهم على تحمل الفتنة، فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم بعض الأمن ولو إلى مدة من الزمن قبل أن يكتشف أمرهم، وقد كان ﷺ حريصاً على إبعاد الأذى عن أتباعه ما أمكنه ذلك.

٤ ـ **التـدرب والاستعداد**: وتعد فترة الاستخفاء مرحلة تدرب على واقع جديد يتدرب فيه المسلم على المفاهيم الجديدة، كما يتعرف على أعضاء مجتمعه الجديد، مما يقوي صلة المسلمين ببعضهم، ويـرفع من معنوياتهم.. وهذا ما يجعلهم أكثر قدرة على تحمل البلاء عند وقوعه إذا ما انكشف أمرهم.

٥ ـ **رصد حركة الأعداء**: وكان من فوائد الاستخفاء رصـد حركـة أعداء الدعوة بحيث تستطيع الجماعة أخذ زمام المبادرة في الحذر منهم، وإبطال ما يسعون له.

---

(١) انظر (من معين السيرة) ص ٦٩ ـ ٧٢.

والمثال القريب لذلك، ما فعله نعيم بن عبدالله النحام، فإنه لما رأى عمر متوشحاً سيفه، شك في أمره وارتاب في مقصده مما دفعه إلى سؤاله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابىء.. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي؟ قال: ابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة.

إن استخفاء نعيم بإسلامه أتاح له أن يحوِّل هذا التيار القوي عما أراده إلى وجهة أخرى، وأن يهون له من شأن نفسه التي تعاظمت، ولو كان معلناً إسلامه لما استطاع أن يتعرض له، فضلاً عن أن يثنيه عن عزمه.

الفصل الثاني

الجهر بالدعوة

نتناول في هذا الفصل أمر الجهر بالدعوة، فنبحث أولاً حركة جهره ﷺ بالدعوة، ومراحل تصعيد هذا الجهر، ثم نبحث مشاركة الصحابة رضي الله عنهم ودورهم في هذا الميدان.

جهره ﷺ بالدعوة:

رأينا في الفصل السابق كيف أنه ﷺ أعلن عن مهمته دون تأخيرٍ يومَ نزل الوحي يطالبه بالقيام بمهمة الإنذار.

ورأينا أن الدعوة قد بدأت هادئة قبل إنكار قريش. . ، وفي ظل تلك الفترة كان إسلام من أسلم قبل دخول دار الأرقم.

ثم كان دخول دار الأرقم عقب وقوف قريش في وجه الدعوة وصدها عن سبيل الله، وقد ظلت هذه الدار مركزاً من مراكز اللقاء بين النبي ﷺ وبين أتباعه حتى نهاية العام السادس من البعثة.

ولكن هذا لا يعني أن الرسول الكريم ظلت دعوته محصورة في إطار قريش وأهل مكة. فإن النصوص التي بين أيدينا تبين أنه ﷺ مع مطلع العام الرابع من بعثته اتجه إلى إعلان دعوته والجهر بها إلى غير قريش حيث بدأ يفتش عن قوم يحمونه حتى يبلغ دعوة الله تعالى.

أخرج الإمام أحمد عن جابر قال: (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم: عكاظ ومجنة، وفي المواسم، يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»، فلا يجد أحداً يؤويه

ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع..)[1].

وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٠١) عن عبدالله بن كعب بن مالك رضي الله عنهما قال: (أقام رسول الله ﷺ ثلاث سنين من نبوته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا عشر سنين، يوافي الموسم يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره، حتى إنه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة..)[2].

إن هذين الخبرين وغيرهما يبينان أن دعوته ﷺ كانت في الأعوام الثلاثة الأولى قاصرة على أهل مكة، ثم بدأ يتطلع إلى غير قريش مع مطلع العام الرابع واستمر كذلك عشر سنين وهي بقية إقامته في مكة، وما ذاك إلا لما رآه من العناد والمقاومة لدعوته من أهل مكة.

ولقد وجد ﷺ في مواسم الحج، ومواسم الأسواق قبل الحج وبعده فرصة مناسبة لعرض دعوته، كما رأينا في النصين السابقين..

ومما يلفت النظر في عرضه ﷺ نفسه على القبائل، أنه لم يطلب إيمان الذين يعرض عليهم أمره، وإنما كان يطلب منهم إيواءه ونصرته حتى يبلغ الرسالة، إنه يطلب حمايته لتأمين حرية الكلمة وإيصالها إلى الأسماع، وهو لا يلزم أحداً بقبول ما جاء به..

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢٤٥/١، وقال: وقد رواه أحمد أيضاً والبيهقي من غير هذا الطريق أيضاً، وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه، كذا في البداية ١٥٩/٣.
وقال الحافظ في فتح الباري ١٥٨/٧: إسناده حسن، وصححه الحاكم وابن حبان.
وقال الهيثمي ٤٦/٦: ورجاله أحمد رجال الصحيح.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٩٢/١.

ولقد بذل ﷺ جهوداً مضنية في هذا المجال ولكن المقاومة الإعلامية التي نظمتها قريش كانت تحول دون الوصول إلى ثمرة ما.

روى الإمام أحمد وغيره عن ربيعة بن عباد من بني الدئل ـ وكان جاهلياً فأسلم ـ قال: (رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب)(١).

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده(٢).

واستمر رسول الله ﷺ على دعوته تلك حتى العام العاشر من البعثة، وفيه توفي عمه أبو طالب، الذي بذل في حمايته الشيء الكثير، وعندها نالت قريش من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياته.. وعندها فكر في البحث عن مكان لدعوته خارج مكة.

وكانت الطائف أقرب المدن إلى مكة.. وخرج إليها يبحث عن أرض صلبة يقيم عليها بناء دعوته، ولكنه قوبل برد سيء ومعاملة قاسية.. وعاد ثانية إلى مكة ليتابع بذل الجهد.. عسى الله أن يأتي بالفرج من عنده..

وكان ذلك في موسم العام الحادي عشر من البعثة حيث كانت البيعة الأولى مع الأنصار.. وكانت الهجرة بعد ذلك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٩/٣.
(٢) سيرة ابن هشام ٤٢٥/١.

جهر الصحابة بالدعوة:

بالنسبة للصحابة - رضي الله عنهم - هناك جهر بالإسلام، وهناك جهر بالدعوة، وما الجهر بالإسلام - في بدء هذه الفترة - إلا الدعوة القوية إليه بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال.

وقد بينا في الفصل السابق أن أمر الاستخفاء بالإسلام من قبل بعض الصحابة الأول قد انتهى مع إسلام عمر وهذا لا يعني أن الصحابة لم يظهروا إسلامهم حتى ذلك الوقت، بل إن القلة هي التي ظلت مستترة بإسلامها حتى ذلك الوقت.

إن عمليات التعذيب التي نظمت ضد المسلمين قد بدأت بعد بدء الدعوة بقليل.. وما تلقي العذاب والصبر عليه إلا الإعلان القوي عن هذا الجهر.

ولما اشتد البلاء.. وجّه الرسول ﷺ أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة.. وكانت هذه الهجرة الإعلان الثاني عن الانتماء القوي لهذا الدين..

ثم كان إسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما الدافع القوي لاستعلان البقية الباقية ممن لم يظهر إسلامه حتى ذلك الوقت[1].

لا شك بأن هذه الأساليب - التعذيب.. الهجرة - في الإعلان عن الإسلام كانت من القوة بحيث تصل إلى قلوب المشركين فتضعهم أمام سؤال مهم هو: ما هو هذا الدين الذي يتحمل معتنقوه كل هذا الابتلاء في سبيله، بل ويغادرون وطنهم من أجله..؟ وكفى بهذا من جهر عملي بالإسلام، دعوة إلى هذا الدين.

وما من شك في أن المسلمين الأوائل قاموا بدور فعال في الدعوة إلى

---

(١) قال عبدالله بن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [سيرة ابن هشام ٣٤٢/١ ورواه ابن أبي شيبة والطبراني كما في شرح الزرقاني على المواهب ٢٧٧/١].

هذا الدين، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يدعو عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فلما استجابوا له جاء بهم إلى رسول الله ﷺ حيث أعلنوا إسلامهم..

ولقد كانت الدعوة مهمة كل مسلم.. فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه إلى الإسلام فإن استجاب وجهه إلى دار الأرقم حيث يلتقي بالرسول ﷺ وقد رأينا كيف التقى عمار وصهيب على باب دار الأرقم دون موعد، وسأل كل منهما الآخر عن سبب مجيئه.. ونسأل: كيف عرف كل منهما مكان الرسول الكريم لولا أن الذين دعوهما أعلموهما بذلك.

على أن الدعوة من الصحابة لم تبق في هذه الحدود الفردية، ولكنها تجاوزت ذلك لتدخل دور الدعوة العامة. ونكتفي بمثالين على ذلك.

● قال ابن إسحاق وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط(1)، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ رافعاً بها صوته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ..﴾ قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم

(١) أي من غير الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

● جاء في البداية: عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين..[2].

حدث هذا والمسلمون ما زالوا في دار الأرقم.

* * *

نستطيع القول بأنه بعد الخروج من دار الأرقم، قد أصبح للمسلمين في مكة وجودهم الظاهر، وأصبح عددهم لا بأس به، الأمر الذي وجدت فيه قريش خطراً على كيانها، فصعَّدت من عمليات الإيذاء..

وهذا ما دعا النبي ﷺ إلى توجيه أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية.. وكان عدد المهاجرين كبيراً، كان عدد الرجال يزيد على الثمانين وبلغ عدد النساء ثماني عشرة امرأة..

وعلى الرغم من قلة الذين لم يهاجروا إلى الحبشة في المرة الثانية، فإن الأخبار تبين الوجود الظاهر للمسلمين في مكة، وإصرارهم على ممارسة حياتهم بشكل صحيح، يملأ نفوسهم إرادة قوية وإيمان صادق يجعلهم لا يكترثون بالضغوط مهما كان حجمها.

فهذا أبو بكر يردّ جوار ابن الدغنة الذي أجاره حين أراد الخروج إلى الحبشة، يردّه لأن قريشاً أرادت منعه من جهره بتلاوة القرآن الكريم في المسجد الذي ابتناه في بيته لنفسه..

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٤ ـ ٣١٥.
(٢) البداية والنهاية ٣/٣٠.

وهذا عثمان بن مظعون ـ بعد عودته من الحبشة ـ يرد جوار الوليد بن المغيرة مكتفياً بجوار الله تعالى.

ولم تعد لقريش الهيبة التي كانت من قبل وانحسر الخوف من نفوس المسلمين وتدربوا على تحمل الآلام..

وبات المسلمون يلتقون بالنبي الكريم في كل وقت، وفي المسجد الحرام، وعلى رؤوس الأشهاد.

فهذا خباب بن الأرت يأتي إلى الرسول ﷺ ـ كما في البخاري ـ وهو متوسد في ظل الكعبة، يطلب منه الدعاء، بعد أن لقي هو والمسلمون الشدة من المشركين.. (١).

وأصبحت لقاءات النبي الكريم بأصحابه علنية، وقد سجل القرآن واحداً منها، وما هو إلا مثل للواقع الاجتماعي يومئذ، وأن المسلمين يجتمعون في وضح النهار.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٢).

---

(١) روى البخاري برقم ٣٦١٢ عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ـ قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاك الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

قال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: (مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ . . ﴾).

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: (كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾)[١].

وهكذا نجد أن ستة نفر من المسلمين يجتمعون بالنبي الكريم على مرأى ومسمع من قريش..[٢].

تلك هي الخطوط العريضة لسير الدعوة في مكة حتى بدء الهجرة إلى المدينة..

(١) صحيح الإمام مسلم، رقم الحديث ٢٤١٣.
(٢) كان هذا الحادث بعد عودة ابن مسعود من الهجرة الثانية إلى الحبشة، حين عاد ثلاثة وثلاثون صحابياً إلى مكة حين سمعوا بمهاجره ﷺ إلى المدينة [انظر تحقيق ذلك في كتاب (نظرات في دراسة السيرة) للمؤلف].

الباب الثاني

التربية في المرحلة المكية

نتحدث في هذا الباب عن الثوابت الأساسية للتربية في المرحلة المكية. وذلك في أربعة فصول:

الأول: ونتحدث فيه عن الأساس الذي تقوم عليه التربية.

الثاني: ونتحدث فيه عن العدَّة لهذه التربية.

الثالث: ونتحدث فيه عن التصور الصحيح لعالمية الدعوة.

الرابع: ونتحدث فيه عن الغاية التي هي بناء القاعدة الصلبة.

الفصل الأول

العقيدة هي الأساس

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله»:

تلك هي الكلمة التي كان رسول الله ﷺ يطلب من الناس أن يقولوها.

وتلك الكلمة هي الباب الذي يُدخَل منه إلى الإسلام..

وبها يعلن المسلم هويته، فهذا أبو ذر يقف في المسجد الحرام ليرفع صوته قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وكان ذلك كافياً ليثور القوم إليه..[1].

وهذا رسول الله ﷺ يطوف على الناس في موسم الحج، ليقول لهم: «يا أيها الناس، قولوا: «لا إله إلا الله» تفلحوا»[2].

إنها كلمة، ولكنها كلمة متميزة..

جاء القوم إلى أبي طالب حين قرب أجله يكلمونه بأمر رسول الله ﷺ.. وحضر ﷺ ليقول لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. قال: تقولون: «لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه..» فصفقوا بأيديهم..[3].

---

(١) متفق عليه، وهو عند مسلم برقم ٢٤٧٤، وعند البخاري برقم ١٦٥٨.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ٧٢/١.

(٣) سيرة ابن هشام ٤١٧/١.

تلك هي الكلمة المطلوبة، ولقد فهم المسلمون المقصود منها، كما فهمه الكافرون على حد سواء، فهمها المسلمون فالتزموا بما تفرضه عليهم من مسؤوليات، وقاومها الكافرون لأنهم فهموا معناها وما يترتب عليها من ذهاب كيانهم، وتحطم طغيانهم، وتهافت أساطيرهم وأوهامهم.

إن هذه الشهادة تقوم على ركنين:

الأول: وبه يكون الإقرار بالعبودية لله تعالى وحده..

والثاني: ويعني أن معرفة كيفية الالتزام بالعبودية لله تعالى إنما يكون بالتلقي عن رسول الله..

وهكذا تنحسر من حياة المسلم كل الضلالات والأوهام.. ويصبح منقاداً لهذا الرسول الكريم يتلقى عنه ما يأتيه به، في ثقة كاملة، وإيمان لا يتزعزع.

تلك هي القاعدة التي تقوم عليها حياة المؤمن، تنساب إلى القلب بسهولة ويسر لأنها تمثل الحقيقة التي لا شك فيها، ولهذا تتقبلها الفطرة لأنها الصفاء الذي لم يخالطه الغبش..

وكان من حكمة الله تعالى، أن جعل لترسيخ هذه القاعدة ـ على بساطتها ـ المدة الكافية، وهي الفترة المكية، فقد ظل الوحي ينزل ثلاثة عشر عاماً ليوضح هذه القاعدة ضمن التطبيق العملي في واقع الحياة..

ظل القرآن في كل تلك الآيات التي نزلت في مكة يقرر هذه القاعدة تارة، وينفي عنها كل لبس تارة أخرى، ويناقش العقائد الباطلة تارة ثالثة.. وهكذا.

كان المشركون من قريش يقرون بأن الله تعالى هو الخالق.. وقد سجل القرآن هذا الموقف، ولكنهم كانوا يجعلون معه شركاء وجاءت الآيات لتقرر أمر الوحدانية بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض..

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾(١).

ودحض القرآن حجتهم في قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(٢). . . كما وجه إلى إعمال العقل في نفي الشريك عنه تعالى:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾(٣).

وجاءت سورة الإخلاص لتؤكد الوحدانية وتنفي الطرف الآخر من الشرك وهو اعتقاد الولد لله ـ سبحانه عما يصفون ـ فقالت:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾(٤).

وتتابعت الآيات لتقرر كل القضايا الأخرى المرتبطة بأمر الألوهية.. فالشعائر التعبدية كلها لا تكون إلا لله..

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ .. ﴾(٥).

والدين ـ الذي من معانيه الخضوع ـ لا يكون إلا لله.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ .. ﴾(٦).

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٥١ ـ ٥٢. (٢) سورة الزمر: الآية ٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ ـ ٢٣. (٤) سورة الإخلاص.
(٥) سورة الأنعام: الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣. (٦) سورة الزمر: الآيتان ٢ ـ ٣.

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

والانصياع لا يكون إلا لحكم الله تعالى..

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(٢).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾(٣).

وهكذا تتابعت الآيات لتجلو بوضوح كل أمر يتعلق بهذا الشأن حتى وصلت بالمؤمن إلى التصور الصحيح والكامل الشامل في شأن الألوهية.. يقابله في الطرف الآخر أمر العبودية لله وشموله لجميع تصرفات العبد..

* * *

وكان من حكمته تعالى أيضاً أن بين حقيقة الرسالة والرسول.. وكان هذا البيان ضرورياً حتى لا يحصل الزيغ والانحراف الذي حصل في الأمم السابقة في هذا الصدد.

وكثيراً ما كان تقرير بعض هذه الحقائق - على الرغم من وضوحها - أثناء مناقشة المشركين والرد عليهم حول تصورهم عما ينبغي أن يكون عليه الرسول ونستطيع أن نلخص الأمور الرئيسة بالآتي:

*** تقرير بشرية الرسول ﷺ:**

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ..﴾(٤).

ولقد اعترض المشركون أن يكون الرسول بشراً فقالوا:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢١.

(٤) سورة الكهف: الآية ١١٠.

﴿إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

ورد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ . .﴾[2].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[3].

* إنه رسول مثل الرسل السابقين:

وسيرة هؤلاء الرسل في تاريخ الأمم معروفة تتداولها الأجيال. إنهم أعلام الهدى في الأمم. وجاء القرآن ليؤكد هذا الأمر ليستقر حقيقة من حقائق هذا الدين.

﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . .﴾[4].

* مهمته تبليغ الرسالة:

فهو لا يتصرف بشيء من عنده، كما لا تصرف له في الكون، وليس له شيء من صفات الألوهية . .

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٠.
(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٧ ـ ٨.
(٤) سورة يس: الآيات ١ ـ ٤.
(٥) سورة الأحقاف: الآية ٩.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2].

*** إنه ذو خلق عظيم:**

وهو بشر من الناس ولكنه فطر على الأخلاق الفاضلة، فهي خلقه الذي يتخلق به ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

هذا الخلق العظيم الذي يكون به أسوة للناس، وبه يسع الناس على اختلاف طبائعهم، وبه يخاطب الناس على قدر عقولهم..

*   *   *

وهكذا وخلال سنوات مكة تعلم الصحابة من خلال الوقائع وبالتطبيق العملي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

يلجؤون إلى الله تعالى، يدعونه خوفاً وطمعاً، يتجهون إليه بعباداتهم ودعائهم، يحمدونه أن هداهم للإيمان..

ويتعاملون مع رسولهم الكريم من منطلق الحقائق التي ذكرناها، والتي وجههم القرآن إليها.

لقد رأوا فيه من الرحمة بهم والعطف عليهم ما لا يجده الولد من والده. فهذا زيد بن حارثة يرفض الذهاب مع والده إلى أهله وعشيرته ويؤثر البقاء قريباً منه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة الملك: الآيتان ٢٥، ٢٦. (٢) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(٣) سورة القلم: الآية ٤.

وتعلموا من خلال الواقع أنه ﷺ لا يعلم الغيب وأنه بشر.. فهاهم المشركون يسألونه ـ بتعليم من اليهود ـ عن فتية ذهبوا في الدهر. فقال لهم ﷺ: «أخبركم بما سألتم غداً»، ولم يستثن.. فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي.. ثم نزل ليعطيه الجواب في سورة الكهف وليقول له:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..﴾[1].

ولقد كانت أياماً مؤلمة للرسول الكريم ولصحابته الكرام.. وهم يسمعون قول الكافرين: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة..

ولكنهم تعلموا أن الأمور بيد الله تعالى، لم يتعلموها نظرية تقرأ، وإنما عايشوا ذلك ساعة بعد ساعة.. واستقر في يقينهم أن الله فعال لما يريد.. وأن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ ومنذر، يقود الناس إلى طريق الحق بأمر الله تعالى.

* * *

والإيمان بالغيب ركن من أركان هذه العقيدة..

يشمل الإيمان بوجود الملائكة وبوجود الجن.. والإيمان باليوم الآخر.

ولم يناقش القرآن المكي قضية من القضايا بالتفصيل الذي عرض فيه لأمر اليوم الآخر.

إنها قضية البعث بعد الموت.

وقضية الحساب والجزاء..

وقضية الجنة والنار.

وقد أنكر المشركون القضية الأولى.. وبالتالي القضايا التي تتبعها، ولشدة تعنت المشركين وتكذيبهم باليوم الآخر، كثرت الآيات التي قررت

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

وجود هذا اليوم وبرهنت عليه بأساليب متعددة كل واحد منها كان كافياً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحكت لنا سورة يس جانباً من هذا الإنكار ومناقشته، فقالت:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . . ﴾(1).

وبعد هذا البرهان البين كانت هناك نقلة أخرى للفت النظر إلى ما هو أكبر:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . . ﴾(2).

وفي سورة ق ينقل القرآن الكريم قول الكافرين ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ ثم يكون الجواب بعد جولة في ملكوت السماوات والأرض.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾(3).

وفي سورة القيامة يقول تعالى:

---

(1) سورة يٓس: الآيتان ٧٨ - ٧٩. (2) سورة يٓس: الآيتان ٨١ - ٨٢.
(3) سورة ق: الآيات ٣، ٦ - ١١.

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ (١).

ولم يكتف القرآن الكريم بتقرير القضية الأولى قضية البعث. بل تناول يوم الحساب بتفصيل كبير وتناول ذكر الجزئيات فيه، حتى غدا القارىء للآيات وكأنه في ذلك اليوم، يسمع النقاش، وينظر إلى الأعضاء وهي تشهد على صاحبها.. وينظر إلى الكافر وهو يتمنى لو كان تراباً..

وفيما بعد الحساب يكون الجزاء.. الجنة أو النار.

وتناول القرآن أيضاً وصف الجنة ونعيمها، كما تناول وصف النار وعذابها حتى باتت كل منهما تتراءى للإنسان حقيقة واقعة أمام ناظريه..

إنها حقائق من عالم الغيب يقررها القرآن الكريم ليستكمل بها بناء العقيدة في نفس المسلم.

* * *

تلك هي الخطوط الكبرى لهذه العقيدة، التي تصدى لها القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً، ووقف عندها لا يتجاوزها، وكانت غايته تقريرها في النفوس بحيث تكون عقيدة ثابتة مستقرة، مبنية على الوعي والنظر والمعايشة..

إن القرآن المكي وهو يؤكد على هذه القضية، إنما يؤكد على قيام تصور إسلامي كامل في نفس كل فرد مسلم يتبين من خلاله مكانه في هذا الوجود ومكانته.

«لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء، وكيف جاء، ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف، من ذا الذي جاء به من العدم

(١) سورة القيامة: الآيات ١ ـ ٤.

المجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟.. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟.. وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد»[1].

لقد كانت العقيدة بهذا المعنى الشامل، والذي تجاوز أن يكون علماً نظرياً إلى تفاعل نفسي واجتماعي، كانت قوامَ التربية التي انتهجها الإسلام في مكة وربى أبناءه عليها.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٠٤.

الفصل الثاني

الصبر هو العدة

لم يكن تغيير الواقع الجاهلي وتحويله إلى واقع مسلم بالأمر اليسير، إنه يحتاج إلى الجهد الكبير، والإرادة القوية.

وهذا الجهد لا يمكن المضي في بذله إلا إذا تدربت إرادة صاحبه على التحمل، وعلى الصبر فهو العدة دائماً في بلوغ الأهداف الكبيرة.

والصبر ليس موعظة تستمع، أو درساً يحفظ، إنه مواقف تُختبر بها صلابة الإرادة، وقوة تحملها في الميادين المختلفة.

ولذلك كان التدريب عليه يحتاج إلى فترة من الزمن، ينتقل الإنسان فيه من موقف إلى آخر أشد منه وهكذا..

وهذا مايفسر لنا تأكيد القرآن المكي على الأمر بالتزام الصبر في وقت مبكر: «ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات.. لا بد من الصبر في هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض..»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١٤١/١.

لقد وقفت الجاهلية بكل قوتها، وبكل طغيانها، في وجه هذه الدعوة، واستعملت كل الوسائل للصد عن سبيل الله.. كل ذلك يحدث والدعوة ما تزال في مهدها.. فكان لا بد أن تكون العدة في مواجهة هذا الطاغوت هو تربية الإرادة بالصبر لتستطيع المضي في الطريق حتى يتحقق أمر الله في إقامة هذا الدين.

ولا شك بأن الإنسان المؤمن ينتابه الضعف عندما يطول الزمن ويبطء الوصول إلى النتائج.. فكانت آيات الصبر بمثابة محطات تقوية تشحذ الهمة وتدفعها إلى المضي في الطريق مرة أخرى وبعزم قوي.

ولا شك بأن القضية البارزة في مكة على مسرح الأحداث، هي ما تعرض له المؤمنون من الإيذاء والابتلاء على أيدي المشركين، ولم يكن الرسول ﷺ بمنجاة من ذلك.

ولذلك كان الحث على الصبر تنزل به الآيات بأساليب متنوعة، منها ذكر ما أصاب الرسل من البلاء وكيف صبروا عليه.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ..﴾(1).

ولقد كان الاستهزاء من الوسائل الأولى التي قاوم بها المشركون الدعوة، ذلك أنه يثبط الهمم، وتضيق به الصدور، والقرآن يعرض لذكر الأنبياء السابقين وما أصابهم في هذا الجانب ليكون ذلك تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(2).

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ..... وَلَقَدِ

(1) سورة الأنعام: الآية ٣٤. (2) سورة الأنعام: الآية ١٠.

ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

إنه طريق النبوات ولا بد من الصبر..

وإذا كان الاستهزاء لم يعرقل سير الدعوة، فقد لجأ الكفر إلى اتخاذ وسائل أخرى تعتمد على التأثير النفسي من الوصف بالسحر والجنون والشعر.. وكانت الآيات الكريمة تنزل لتسليته ﷺ، ودعوته إلى الصبر على ما يقولون.. ولكثرة هذه الأقوال وتداولها بين الكافرين.. تكرر التذكير بالصبر على ذلك مرة بعد مرة:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴾[2].

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ .. ﴾[3].

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴾[4].

وكلما طالت المعركة مع الكفر نزلت الآيات لتطمئن الرسول والمؤمنين أنهم على الحق، وأن عليهم الصبر على متابعة الطريق..

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ .. ﴾[5].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .. ﴾[6].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[7].

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات ٣٦ - ٤١.
(2) سورة قٓ: الآية ٣٩.
(3) سورة صٓ: الآية ١٧.
(4) سورة طه: الآية ١٣٠.
(5) سورة يونس: الآية ١٠٩.
(6) سورة هود: الآية ٤٩.
(7) سورة غافر: الآية ٥٥.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[1].

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . . ﴾[2].

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[3].

وآيات.. وآيات تحث المؤمنين على الصبر، وتجعله صفة لازمة لهم ينالون عليها الأجر عند الله تعالى. ففي سورة الفرقان بعد وصف عباد الرحمٰن: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾[4] وفي سورة العصر: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[5] وفي سورة البلد: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾[6] وفي سورة الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[7].

لقد امتد نزول آيات الصبر على طول الفترة المكية يقود خطوات المؤمنين خطوة بعد خطوة، فتدربوا على تحمل المشاق وتحمل الأذى، وضبط الإرادة، وألا تكون تصرفاتهم ردود فعل، كما تدربوا على الالتزام بما يرد عن الله تعالى.. والانضباط مع أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم..

وفي ضوء ما سبق تظهر حكمة من حكم منع القتال في مكة «إنه كان يراد تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر امتثالاً للأمر، وخضوعاً للقيادة، وانتظاراً للإذن، وقد كانوا في الجاهلية شديدي الحماسة، يستجيبون لأول ناعق، ولا يصبرون على الضيم.. وبناء الأمة المسلمة التي

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٧.

(٢) سورة الطور: الآية ٤٨.

(٣) سورة الروم: الآية ٦٠.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٥.

(٥) سورة العصر: الآية ٣.

(٦) سورة البلد: الآية ١٧.

(٧) سورة الزمر: الآية ١٠.

تنهض بالدور العظيم الذي نيطت به هذه الأمة يقتضي ضبط هذه الصفات النفسية، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر، وتطاع فيما تقدر وتدبر، حتى لو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب التي تعودت الاندفاع والحماسة، والخفة للهيجاء عند أول داع.. ومن ثم استطاع رجال من طراز عمر بن الخطاب في حميته، وحمزة بن عبدالمطلب في فتوته، وأمثالهما من أشداء المؤمنين الأوائل، أن يصبروا للضيم يصيب الفئة المسلمة، وأن يربطوا على أعصابهم في انتظار أمر رسول الله ﷺ، وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهي تقول لهم: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].. ومن ثم وقع التوازن.. في هذه النفوس التي كانت تعد لأمر عظيم»[2].

ولما كانت القضية قضية تربية وإعداد، فإن المربي هو الذي يستطيع تقدير مقياس النجاح، وإلى أي مستوى وصل تلاميذه..

وفي ضوء ذلك نستطيع فهم حديث خباب رضي الله عنه؟ قال:

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»)[3].

إن خباباً رضي الله عنه كان واحداً من الطليعة التي عذبت في الله، وفي البخاري أنه كان اكتوى سبعاً في بطنه..[4] فهو يشكو من مرارة البلاء، ولكن المربي الكريم ﷺ كان واضحاً لديه أن الأمر لم تستكمل عملية الإعداد له، وأنه ما زالت اختبارات على المؤمنين أن يمروا بها. ثم

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٢) في ظلال القرآن ١/١٨٥.

(٣) رواه البخاري برقم ٣٦١٢.

(٤) رواه البخاري برقم ٦٤٣٠.

طمأنه إلى النتيجة وهي تمام ذلك الأمر الذي هو قيام الإسلام، بعد أن هون عليه من مصابه إذا قيس بما ذكره النبي الكريم عن مصاب الدعاة في الأمم السابقة..

إنه لا ينبغي إغفال عامل الزمن في أي عملية تربوية، يضاف إلى ذلك مقدار التجارب المطروحة على مسرح الأحداث، ونوعية تلك التجارب.

الفصل الثالث

التصور الصحيح عن عالمية الدعوة

جاء في سيرة ابن هشام في صدد الحديث عن غزوة تبوك:

«.. وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها.. إلا ما كان في غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته..»[1].

تلك سنته ﷺ في الأمور التي بعدت غايتها، وتحتاج إلى أخذ الأهبة وإعداد العدة..

وتلك جزئية بنيت على إدراك عميق منه ﷺ لمنهج الدعوة وسير حركتها. فإن الغاية البعيدة والطريق الطويلة تحتاج إلى العدة المتناسبة معها، كما تحتاج إلى معرفة مسبقة بها لمن يريدون السير فيها..

والدعوة منذ أيامها الأولى كانت واضحة المعالم بأنها دعوة عالمية، غايتها إقامة حكم الله في الأرض كل الأرض.. ولذلك كان الحديث في الآية الأولى نزولاً عن الإنسان، جنس الإنسان.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2].

ولقد كان هذا المفهوم واضحاً من الأيام الأولى، يتحدث عنه الرسول ﷺ تقريراً، ويفهمه الصحابة مسلَّمة من المسلمات الإيمانية..

---

(١) سيرة ابن هشام ٥١٦/٢.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.

فقد رأينا في حديث خباب ـ الذي سبق قريباً ـ قوله ﷺ: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله..».

وفي المناقشة التي حصلت في بيت أبي طالب بين كبار قريش وبينه ﷺ قال لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم..»(١).

كان الأمر من الوضوح لديه ﷺ ولدى أصحابه بما لا يدع مجالاً لأدنى ريبة، وإن نظرة سريعة في القرآن المكي بشكل عام لتؤكد ذلك بوضوح.

فالآيات المكية تتحدث عن الإنسان ـ جنس الإنسان ـ وتخاطب الإنسان.. بغض النظر عن وطنه وعن قومه..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(٢).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾(٣).

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(٤).

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾(٥).

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾(٦).

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾(٧).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾(٨).

---

(١) سيرة ابن هشام ٤١٧/١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢.
(٣) سورة لقمان: الآية ١٤.
(٤) سورة النجم: الآية ٣٩.
(٥) سورة القيامة: الآية ٣.
(٦) سورة القيامة: الآيتان ١٣ ـ ١٤.
(٧) سورة النازعات: الآية ٣٥.
(٨) سورة الانفطار: الآية ٦.

وقد تتعامل الآيات مع الصفات السلوكية المكتسبة للإنسان فتكون النظرة إليه إما من خلال صفات الخير أو من خلال صفات الشر، بغض النظر أيضاً عن قومه وجنسه وأرضه وزمنه..

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾(1).

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(2).

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾(3).

وهكذا فإن التعامل مع هذا الإنسان من خلال برّه وتقواه، أو من خلال طغيانه وكفره.

لقد كان واضحاً كل الوضوح في لغة القرآن المكي عالمية هذه الدعوة وإنسانية هذا الدين، فهو ليس لشعب أو لعرق أو لقوم.. إنه لجميع الناس، لا في عصر واحد وإنما على تعاقب العصور..

ومع كل هذا الوضوح، فإن الله عز وجل أراد أن تكون هذه القضية واضحة بينة فنصَّ على ذلك صراحة في آيات من القرآن المكي نذكر منها(4):

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾(5).

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(6).

---

(1) سورة النبأ: الآية ٣١.
(2) سورة النازعات: الآيات ٣٧ ـ ٤١.
(3) سورة الانفطار: الآيتان ١٣ ـ ١٤.
(4) نذكر هذه الآيات بحسب ترتيب نزولها.
(5) سورة التكوير: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.
(6) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ * وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

كان هذا البيان ضرورة ليعلم حجم المهمة الملقاة على عاتق المؤمنين، ليعدوا أنفسهم لذلك، وليكونوا على بينة من أمرهم.

إن هذه المهمة من الضخامة بحيث احتاجت إلى تربية خاصة ولمدة غير يسيرة، وضخامة المهمة يفسر لنا الحاجة إلى طول المدة، كما يفسر لنا اختيار تلك النوعية من العدة النفسية التي اختيرت لتكون الزاد في أداء هذه المهمة.

إنها حلقات مترابطة يتمم بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها بعضاً في سبيل إيجاد القاعدة الصلبة..

---

(١) سورة الفرقان: الآية ١. (٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ١٠٦ - ١٠٧.

الفصل الرابع
القاعدة الصلبة

بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى لدعوة الرسول ﷺ أن هذه الدعوة استقطبت المؤمنين الأُول لتشكل منهم تجمعاً عضوياً متماسكاً يقوم على آصرة العقيدة، حيث تزول الفوارق.. ويصبح المؤمنون أخوة في الله.. المعتق والمعتَق. والسيد والعبد والمرأة والرجل.

وبدا أن هذا التجمع يزداد يوماً بعد يوم.. الأمر الذي دفع قريشاً للوقوف في وجه هذا الكيان الجديد.

وهكذا «وُلِدَت الحركة الإسلامية على محك الشدة، فلم تكد الجاهلية ـ ممثلة في قريش ـ تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله، ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله. ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ، هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله، ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية».

«لم تكد الجاهلية.. تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمع الجديد، وعلى القيادة الجديدة، وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى، ومن كيد، ومن فتنة»..

«وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى و الفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان».

«بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة، من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلاً، فقد كان الأمر كله معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين»(١).

وإنه مما زاد من صلابة هذه القاعدة، أن هذه الدعوة لم تقم على عرض المغريات من المادة والمتاع والمال، ولم تمنِّ معتنقيها بالوعود البراقة فيما ينتظرهم من المناصب والمغانم.. لم يكن شيء من ذلك.

نعم، كان هناك وعد واحد، هو رضوان الله تعالى والجنة في الدار الآخرة. فقد مر رسول الله ﷺ بآل ياسر وهم يعذبون، فلم يكن أكثر من أن قال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»(٢).

لقد كانت الغاية أن تنشأ هذه القلوب المؤمنة على درجة عالية من الصلابة والقوة، ولا يكون ذلك إلا بالتجرد من أمنيات النفس المتعلقة بمتاع الدنيا، وصرف ذلك كله إلى التعلق بالآخرة..

ولقد استطاعت تلك القلوب أن ترتقي إلى هذا الأفق العالي، ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٥٧٠ ـ ١٥٧١.

(٢) قال الشيخ ناصر الألباني في تخريجه لأحاديث (فقه السيرة): حديث حسن صحيح.

أنها كانت تتعامل مع الوحي غضاً، فتسمع كلمات الله تعالى تبين لها أجر الساعين إلى رضوانه.. وتبين لها ذلك النعيم الذي لا يزول.

«إن صورة الآخرة في هذا الدين بلغت غايتها من السعة والعمق والوضوح [في القرآن المكي].. حتى بات عالم الآخرة في حسِّ الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً..»(١).

إن هذه الحقيقة تفسر لنا تلك الصلابة التي تكسرت عليها عنجهية قريش.. فقد ماتت سمية أم عمار تحت التعذيب، ومات ياسر زوجها كذلك، لم يتراجعا عن إيمانهما كما كان مطلوباً منهما ذلك، إن الموت في هذه الحالة يعني أن إرادة المقهور المعذَّب أكبر من قوة وإرادة الطاغية الذي يقوم على فتنته، وإن قوة هذا المؤمن، وهو مجرد من كل سلاح، أكبر من قوة ذاك الطاغية على الرغم من امتلاكه لكل الأسلحة.

وهذه جارية لبني المؤمِّل تعلن إسلامها، وهي امرأة رقيقة، فهي ضعيفة في المفهوم الجاهلي من جهات عدة.. لأنها امرأة.. ولأنها أمة.. ولأنها.. وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك إسلامها ـ وهو يومئذ مشرك ـ وهو يضربها حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة..(٢).

ونتساءل من الأقوى.. المرأة التي صبرت على البلاء والتعذيب حتى ملَّ عمر، أم عمر وهو يومئذ فتى قريش ورجلها؟.

إنها صلابة الإيمان.

ولقد كانت هذه الصلابة دافعاً للتأمل من قبل المشركين، إن هذا الصبر الذي تحلى به هؤلاء المؤمنون، وهذا الثبات على المنهج.. كان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٠٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٣١٩/١.

يدخل إلى نفوس المشركين ـ من حيث لا يشعرون ـ بالإعجاب والإكبار. الأمر الذي يدعوهم إلى النظر في هذه القيم التي يؤمن بها هؤلاء ويموتون في سبيلها.

نعم لقد استطاع الرعيل الأول من المؤمنين أن يكـونوا القـاعدة الصلبـة التي قام عليها المجتمع الإسلامي فيما بعد. وما ذاك إلا بفضل تلك التربية الإيمانية التي كان الرسول الكريم ينشئهم عليها.

الباب الثالث

مسارات العملية التربوية في مكة وسماتها

تحدثنا في الباب السابق عن أركان التربية. . ونتحدث في هذا الباب عن مسارات التربية وسماتها.

ذلك أن النفس الإنسانية مخلوق معقد التركيب، وكان من حكمة الله تعالى، خالق هذا الإنسان، أن تناول المنهج الإلهي هذه النفس من كل جوانبها في آن واحد، فكانت هذه التربية تسير في توازن عام على جميع جبهات هذه النفس.

ومن أجل الدراسة، فإننا نكتفي بالمسارات الرئيسة فنبحث:

ـ **في الفصل الأول**: التربية الذاتية للنفس.

ـ **وفي الفصل الثاني**: التربية في المواجهة الخارجية.

ـ **وفي الفصل الثالث**: المسار الاجتماعي للتربية.

ـ **وفي الفصل الرابع**: المسار الاقتصادي للتربية.

ـ **ونختم البحث بالفصل الخامس**: فنتحدث فيه عن سمات هذه التربية.